

الخيال في الشعر العربي

يرتفع شأن الشعر ونقضي لصاحبه بالبراعة والتفوق على غيره بمقدار ما يحرز من بناء محكم ومعنى بديع . وقد حدى فلاسفة الادب انظارهم الى الوجوه التي تملك بها المعاني شرف منزلتها وحسن طاعتها ، أو تأخذ منها الالفاظ متانة نسجها وصفاء ديباجتها .

ومن أجل الفنون التي يرجع النظر فيها الى جهة المعنى صناعة التخيل ، وهي الفرض الذي جردت القلم للبحث عنه في هذه الصحائف متحرراً أسلوباً لا يشتكي منه القارئ طولاً ولا قصراً

ولا ادعي أن هذا الفن مما ضل عن أولئك الفلاسفة فلم يرجوا على مكانه ، أو ضعب عليهم مراسه فلم يسوسوه بفكر ثاقب وبيان فاصل ؛ فإن كثيراً من علماء البلاغة قد ولوا وجوههم شطره حتى توغلوا في طرائقه ، وكشفوا النقاب عن حقائقه ، ومن أبعدهم نفوذاً في مسالكه الفاضلة وأسلمهم ذوقاً في نقد معانيه وتمييز جيدها من رديئها الامام عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز . وما كان لي سوى أن أعود الى مباحثه المبتوتة في فنون شتى فاستخلص بقدر ما تسمح به الحال لبابها ، وأولف بين ما تقطع من أسبابها ، ولا تجديني أن شاء الله أحكي مقالهم دون أن أعتد بناصيته أو أبت خلاله أو أضغ في ردفه جملاً تلبسه ثوباً قشياً أو تبتغ فيه روحاً كانت هادئة

الشعر

يعرف العربي في جاهليته كما عرف بعد أن نزل اليه العلم من كل حدب أن الكلام ينقسم الى شعرونثر . والميزة المحسوسة لكل أحد أن الشاعر لا يبحو عليك الالفاظ جزافاً مثلاً يفعل النائر ، وإنما يلقيها اليك في أوزان تزيد في رونقها ، وتوفر لذتك عند سماعها ، ومن هذا ذهب بعضهم في حد الشعر الى أنه كلام قفى موزون . وهذا مثل من يشرح لك الانسان بأنه حيوان يادي البشرة منتصب القامة . فكل

ما قصر تعريفه على ما يدرك بالحاسة الظاهرة ، ولم يتجاوزها الى المعنى الذي تقوم
الحقيقة ويكون مبدأ الكلام ، وهو التخييل في الشعر والنطق في الانسان
فالروح التي يمد بها الكلام المنظوم في قبيل الشعراء هي التشايب والاستعارات
لامثال وغيرها من التصرفات التي يدخل لها الشاعر من باب التخييل . وليس
زن سوى خاصة من خواص اللفظ المنظور اليها في مفهوم الشعر بحيث لا يسميه
رب شعرا الا عند تحققه ، واطلاق الشعر على الكلام الموزون اذا خلا من معنى
منظره النفس لا يصح الا كما يصح لك ان نسي جثة الميت انسانا ، أو تمثال
لميوان المقترس أسدا

والمشور من الكلام يشارك الشعر في اشتماله على الصور الخيالية ولكن نصيب
شعر منها أوفر وهو بها أعرف ، كما يمتاز بأحد أنواع التخييل وهو مالا يتوخى به
ماجه وجه الحقيقة ، وإنما يقصد به اختلاب القول ومخادعة النفوس الى التثبت
فبحق يدعو كما قال ابن الرومي الى أن تطوي جناحك على جذوة من الحقد
وما الحقد الا توأم الشكر في الفتي وبعض المزايا ينتسب الى بعض
فحيث ترى حقا على ذي إساءة فتم ترى شكرا على واسعي القرض
وقال آخر — بزین لك أن تدرج نفسك في كهن الذل وتواربها في
حفرة من الخمول

لقد بالخمول وعذ بالذل معصما بالله تنجو كما أهل النهي صلوا
فالرجح نطم ان هبت هراصفها دوح النمار وينجو الشبح والرم
ولاختصاص الشعر بهذا النوع من التخييل أطلق بعض المشركين من العرب
على الرسول صلى الله عليه وسلم اسم الشاعر ليقوا في أوهم السذج أن كلامه من
نوع ما يصدر عن الشعراء من الأقوال الموهبة والتخييلات الباطلة
فهم يملون أن القرآن بريء من النزوة التي عهد بها الشاعر وهي عرض الباطل
في لباس الحق ، لأنه انما ينطق بالحكمة ، ويجادل بالحجة ، ولا يخفى عليهم أنه مخالف
للشعر في طر يقنظمه ، فان للشعر هروضا يقف عنده ووزنا ينهي اليه ، والقرآن بصوغ
الموعظة وينفق الحكمة بغير بزان ، ولكن ضافت عليهم مسائل الجدال وانسدت في

وجوههم طرق المارضة ، فلم يبالوا أن يشبهوا بالدعوى التي يظهر بطلانها الاول رأي ، كما قالوا عنه انه مجنون ، وهم يشهدون في افهام انه بلغهم قولا واقوام حجة وأنطقهم بالحكمة

وأما الآيات التي وافقت بعض الاوزان فهي على بلاستها من بهرج التخييلات لأنجد الموافق منها للموزون قد استقل بنفسه وأعاد المعنى دون أن تصله بكلمات من الآيات السابقة أو اللاحقة ، والكلام المؤلف من الموزون وغير الموزون لا يصح لاحد أن يسميه شعرا ليقدم به في قوله تعالى (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون)

التخييل عند علماء البلاغة

ينقسم التصرف في الماني على ما يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني الى تحقيق وتخييل ، والفرق بينهما أن المعنى الحقيقي ما يشهد له العقل بالاستقامة وتتضافر العقلاء من كل أمة على تقريره والعمل به وجبه كقول النبي

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق هلى جوانبه الدم

فدعى هذا البيت مما تلقاه العقلاء بالقبول ، ووضوه بمقدمة ما يتنافسون فيه من الحكم البالغة ، وكذلك اتخذها الامراء الراشدون قاعدة يشدون بها ظهر سياحتهم ، ويستندون اليها في حياية شموجهم ، ومن الذي يجهل أن حياة الامم إنما تنظم بالوقوف في وجه من يتهاوت به السفه هلى هدم شرفها والاصنتار بمقوقها ؟

والتخييل هو الذي يردده العقل ، ويقضي بعدم انطباقه على الواقع ، اما هلى البديهة كقول بعضهم

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما وأبت عليها عقد منتطق

فكل احد يدرك لاول ما يطرق سمعه هذا البيت أن الكواكب لا تنوي ولا تأنطق ولا تخدم ، وأن تلك النجوم المتناسقة في وسط الجوزاء مركبة فيها من قبل أن يصير المدوح شيئا مذكورا

أو بعد نثار قليل كقول أبي تمام

لا تنكري صطل الكريم من النفي فالسبل حرب له مكان العالي

أبى الحاطبة في صدر البيت عن انكارها لفاقة الكرم وفراغ يده من المال
 واخبر في المبرز بأن السبيل لا يستقر على الاماكن المرتفعة . وهذا المعنى في نفسه
 صحيح ولكن الفاء في قوله « فالسبيل حرب » انصحت بأن السبب في عدم توفر حطام
 الدنيا لدى الكرم هو كون الماء اذا وقع على الاماكن العالية لا يلبث أن ينحدر الى
 ما انخفض منها من وهاد وأغوار ، وهذا إنما وصل الى الذهن بتخييل أن رفعة القدر
 بمنزلة المكان الحسي وان المال بمنزلة الماء الدافق ينساق الى الرجل فيقضي منه وطره
 ثم يرسله ان شاء الى بني الحاطبات ، فيكون القول بأن مكانة الكرم لا ارتفاعها جعلت
 المال يمر على يده ثم ينطلق بالبذل والاتفاق يستند الى ان الماء لا يتجمع على ما صعد
 على وجه الارض من أكمت وهضاب ، وهذا القياس ضرب من التخييل لا يجوز في
 العقل الا ربما ينظر الى ان السبب في عدم استقرار الماء على الاماكن العالية كونه
 جرمًا سيالًا لا تماسك اجزائه وثبت في محل الا اذا أحاط بجوانبه جسم كثيف ،
 وليس للدرام والدنانير هذه الطبيعة حتى يلزم أن تمر على يد الكرم ثم تنصب منها
 الى من كانوا ادنى منه منزلة

ويفهم من وجه التفرقة بين القسمين أن مجرد الاستعارة عندم لا يدخل في
 قسم التخييل وقد صرح الجرجاني بهذا في كتاب اسرار البلاغة ناظرًا الى ان المستعير
 لا يقصد الا اثبات معنى اللفظة المستعارة حتى يكون الكلام مما ينبوعه العقل ، وانما
 يمد الى اثبات شبه بين امرين في صفة والشابه من المعاني التي لا ينزع العقل في صلاحها

التخييل عند الفلاسفة

يقول الفلاسفة ان من بين القوى النفسية قوة تتصرف في صور المعلومات
 بالتركيب تارة والتفصيل مرة أخرى ، ويسمونها فلاسفة العرب اذا لم تخرج عن
 دائرة العقل مفكرة ، ويقال في عملها تفكر ، فان تصرفت بوجه لا يطابق النظر
 الصحيح سموها تخيلة ، ويقال في عملها تخيل أو تخييل . فثال ما يأخذ من
 العقل مأخذ القبول قول القاضي عياض

انظر الى الزرع وخاماته نهكى وقد وات امام الرياح

كتبيسة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

فالشاعر التفت الى ما في حافظته من الصور المناهضة لمياه زرع أخضر يتخلله

شقائق النعمان وقد أخذت الرياح نهب عليه من جانب فيميل الى آخر ميل لا يراى
للمين انه حركة ينتقل بها من مكانه ، فوق خياله على الجيش والملابس الخضراء
والجراحات التي تنال الجيش المقاتل فألف بينها ثم جعل صبره اذبارا وانهما ليوافق
حالة جيش ظهرت فيه الجرحى بمقدار ما في المزارع الخضراء من شقائق النعمان
ومثال ما لا يثق به النظر ولا يدخل في حساب الاقوال القائمة على التحقيق

قول الشاعر

ترى الثياب من الكتمان يلمحها نور من البدر أحيانا فيليها

فكيف تنكر أن تبلى مما جرهما والبدر في كل وقت طالع فيها

ابصر مما جر من يتحدث عنها وقد اخلقت فحاول ان يلتمس وجهها بجمل ذلك
الاخلاق من شواهد حسننها، أو بسد فم العاذل حتى لا يفض من شأنها، فنصو رطلعة
القمر وانساق اليه ما يدور بين الناس من أن الثياب التي يمج عليها القمر أشعثه يسرع
البها البلى ثم ادعى مبالغا في التشبيه أن وجهها قمر وبني على هذا أن تعجب ممن ينكر
تأثيره في معجزها بالاخلاق، ففي هذا التصرف ادعاء أن وجهها قمر وهذا مما يالفه العقل
لانه بمنزلة التشبيه ولا مفرد من قبوله متى تحقق الوجه الجامع بين طرفيه والمعنى الذي
للعقل أن يلتفت منه انما هو دعوى ان معجزها أخلاق بعلة كونه مطلقا لوجهها المسمى
بالقمر على وجه المجاز

ماذا تريد من التخيل ؟

يفهم من صريح المقالة الفلسفية أن المفكرة والنخلة اسمان لقوة واحدة وهي التي
تصرف في المعلومات بالتفصيل والتركيب وانما تغير اسمها بحسب اختلاف الحال
فعند ما يكون زمامها بغير العقل بسمونها مفكرة وعندما تنفلت منه بسمونها نخلة
واذا عرفت أن التمثيل والاستمارة من عمل هذه القوة باتفاق علماء النفس فهو
جري طائفة من الناس على اطلاق التخيل أو الخيال عند ما تصرف هذه القوة
تصرفا تصوغ به معنى مبتدعا سواء أنس به العقل أو نجاني عنه لم يكونوا صنعوا شيئا
سوى تغير الاصطلاح ودخال القسمين تحت اسم واحد

واما لاقى لفظ التخيل أو الخيال في صدد الحديث على المعاني الصادقة والتصورات
 المنقولة لا يحط من قيمتها أو يمس حرمتها بقبضة فان عباد البلاغة انفسهم قد اطلقوه
 على ما ياتي به البليغ في الاستعارة المكبية من الامور الخاصة بالمشبه به ويثبته للمشبه
 فقالوا الاظفار أو اضافتها في قولك «انثبت المنية اظفارها» تخييل أو استعارة تخيلية
 واطلقوه في الدعوى فوالوصول حين تكلموا على الجامع بين المجتئين وقسموه الى عقلي
 روحي وخيالي واطلقوه في فن البديع على تصوير ما يبظر في العيان بصورة المشاهد ولم
 يبالوا في جميع ذلك بغير ان يفرقوا لها امثلة من الكتاب العزيز وغيره من الاقوال الصادقة
 فيسوغ لنا حينئذ لمن نسير احصاء المصدر وتوسع في معنى الخيال والتخييل ولا
 يقف عند اصطلاح القدماء من الفلاسفة أو علماء البلاغة حيث خصوا بها مالا يصادق
 عليه العقل والمخالفة في الاصطلاح مادامت الحقائق قائمة والمقاصد ثابتة بحالها لا يبعد
 عن تبديل العبا وقبيل الاسلوب .

يقول الناس عند ما يسمعون بيتا أو آياتا لاحد الشعراء : هذا خيال واسع أو
 هذا تخيل بديع . فيفهم السامع لهذه الكلمات وما ياتها ان اصاحب هذا الشعر قدوة
 على سبك المعاني ومروغها في شكل بديع ، ولو قالوا « ما اصبحت هذا الخيال أو ما
 اسخف هذا التخييل » فبغير الالفاظ السليمة قدرة على استخراج المعاني في صورة بشكرة
 يصح لنا ان نأخذ هذا المعنى الذي يحضر في الذهن عند سماع تلك الجمل
 ونشرح به معنى التخييل فيقول هي قوة تصرف في المعاني لتنتزع منها صوراً بديعة
 وهذه القوة اما تصوغ الصور من عناصر كانت النفس قد تلقتها من طريق الحس
 أو الوجدان، وليس في امكانها ان تبدع شيئا من عناصر لم يتقدم للتخييل معرفة بها .
 ومثال هذا من الصور المحسوسة أن قدماء اليونان رمزوا الى صناعة الشعر بصورة فرس
 له جناحان وهي صورة انما انزعها الخيال بعد ان تصور كلا من الفرس والطير بانفراده
 وقد يجوز في خاطرنا عند ما نمر على قول امرئ القيس

ايقناني والمشرق مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب افوال

ان هذا الشاعر قد تخيل لاغزال وانبيها ولم نسبق له معرفة بها اذ لا اثر للعقول
 وانيابها ولا لشيء من موادها في العيان فبلوح لك ان هذا يتدح في قولنا ان الخيلة

لا تواف الصور الا من مواد هرقها بوسيلة الحس أو الوجدان
والذي يكشف الشبهة ان كلا من القول وانباها صورة وهمية ولكن لم يجدتها
الخيال من نفسه بل اخذ من الحيوانات الفظيعة المنظر اعضاء متفرقة وأنسابا حادة
وتصرف فيها بالتكبير ثم ركبا في صورة رائعة وهي التي تخطر على الذهن عند ما يذكر
اسم الغول ، حتى ان الناس لا يفتقون فيها أحسب على تصور هذا الامر الموهوم
فكل يخطر له المعنى في أشم صورة يتمكن خياله من جمعها وتلفيقها
فناية ما صنع الشاعر أن تخيل امرا محسوسا وهي النصال المحددة في صورة أمره وفي
نفسه خيالي أيضا ولكن صورته مأخوذة من مواد كان يعرفها من قبل بطريق الرؤية أو السماع
وتعمد الخيلة على قوة التذكر وهو تداعي المعاني وخطورها على الذهن بسهولة
وبعد ان تترامى لها الصور بوسيلة التذكر تستخلص منها ما يلائم الفرض فتفصل
الحاشرات هن أزمنتها أو امكنتها أو ما يتصل بها مما لا يتعلق به القصد من التخيل ،
ثم تصرف في تلك العناصر بمثل التكبير أو التصغير وتأليف بعضها الى بعض حتى
تظهر في شكل جديد

تداعي المعاني

ترجع الاسباب التي تجمع بين المعاني وتجمعها بحيث يكون حضور بعضها في
النفس بسندى حضور بعض الى ثلاثة أنواع
(أولها) أقران المعنيين في الذهن حيث يكون تعلقهما أو احساسهما في وقت واحد
أو على التعاقب ، ومن هذا تذكر الوقائع عندما يحظر بالبال مكانها كما قال ابن الرومي
وحبب أوطان الرجال اليهم ما رب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحزوا لذلك
أوزمانها كما قالت الخنساء
يذكرني طلوع الشمس صخرا واذكره بكل منيب شمس
وخصت هذين الوقتين بالتذكير لانهما مظهر لعالمين عظيمين من أعمال صخر
اذ كان يعدو للانفاس التي هي مظهر الشجاعة عند مطلع الشمس ويبذل سلام
اكراما للضيوف وقت الغروب

ومن هذا الوجه نشأت الكليات وبعض أنواع الجوار المرسل أما الكليات
فلاها الدلالة على المعنى باسمه ، بلارمه في الخارج . وصح هذا نظراً الى ان
حضور المعنى الموضوع له اللفظ يستدعي حضور لازمه في ذهن المخاطب
كقول الحصين بن الحمام

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
ولسنا على الاعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

أراد الشاعر أن يفيد ثباتهم في مواقف الحروب وأنه لا يلبثت بهم الفرع
من الموت الى سبة الهزيمة فعبّر عن هذا المعنى بأن دماءهم لا تقهر على أعتابهم
البتة ، وهذا يقتضي أنهم لا يولون المدو ظهورهم حتى ينالها بسيفه كما ان معنى
قيلر الدماء على الاقدام يذهب بالسامع الى معنى أنهم يستقبلون المدو بوجوههم
الى ان ينالوا ظهراً أو يلاقوا موتاً شريفاً

وأما بعض أنواع الجوار المرسل فكانت اسماً للحال على المحل والسبب على
السبب والكل على الجزء وعكسها ، ومداره على ان ذهن المخاطب ينتقل الى
المعنى المراد بسهولة حيث كان بينه وبين المعنى الحقيقي مناسبة تقتضي تقاربهما
في الذهن لان ادراكهما كان في وقت واحد كالحال والمحل والكل والجزء أو
على التعاقب كالسبب والسبب

(النوع الثاني) من الاسباب التي تتلاحق بها المعاني في الذاكرة التباين
فان الصور التي يكون بينها تضاد لا يكاد بعضها يتخلف عن بعض ، فن تصور
الشجاعة خطر له معنى الجبن ، ومن مرت على باله الصداقة اساق اليه معنى
العداوة ، ولهذا أدخل علماء البلاغة في وجوه اوصول بين الجهتين ما يقوم بينهما
من التصادم في المعنى وساقوا في أمثله قوله تعالى (ان الاررار لفي نميم وان
القمجار لفي جهيم) وان شئت مثلاً من الشعر فقول المتنبي

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وانذي وبياض السبح يغري بي

ومن هذا الوجه أيضا صح لهم ان يعدوا في علاقات الجوار المرسل الضدية
(النوع الثالث) التشابه وهو ان يكون بين المعنيين تماثل في بعض أمور
خاصة كمن يرى الرجن المقدم فيتصور الاسد ويسمع الانماط البليغة قد تبرجت
في أسلوب محكم فيذكر الدرر المناسبة في اسلاكها . وعلى هذا النوع يقوم فن
التشبيه والاستمارة اللذين هما أوسع مسمار تتسابق فيه قرائح الشعراء والكتاب

لماذا تختلف الأفكار في تداعي المعاني ؟

تختلف الناس بما يتداعي اليهم من المعاني الى ان ترى صوراً تتوارد على شخص متعاقبة وهي في خيال آخر لا تتقارن البتة ، قال أحد الفلاسفة اني لا أسأل عن السبب في ان معنى من المعاني يدعو آخر ويأخذ بناسيته ولكنني أبحث في شيء آخر وهو ان المعنى الواحد قد يختلف تواليه باختلاف الاشخاص ، ثم قال ويمكن الجواب عن هذا بأن الناس يختلفون في ميولهم وشمب وجهتهم في الحياة ، فكل معنى يدعو لساحبه ما هو الصق بميله وأقرب الى سم

وايضاح هذا الجواب ان توالي المعاني يختلف باختلاف الاشخاص لاحد سببين (الاول) ان الدواعي والمواطف النفسية لها مدخل في تجاذب المعاني واسترسالها في الخيال ، فالطمع أو الحاجة أو الرهبة مثلا تستدعي المعاني العائدة الى المدبح أو الاستعطاف ، والغرام يستدعي المعاني الغزلية ، والكتابة والاسف يستدعيان معاني الرثاء أو الشكوى ، والسرور يستدعي المعاني اللائقة بالهناء ، والاعجاب بالنفس أو العشيرة يستدعي معاني الفخر والحماسة ، فالراهد في الدنيا لا يسع خياله من معاني الامراء والملق ما يسعه خيال الخريس عليها ، والخالج من عاطفه الغرام ، لا يخطر على قلبه من معاني التشيب ما يخطر على قلب الشجي المستهام

(الثاني) ما يتفق للانسان في طرز حياته وهو حل المحيط الذي يتقلب فيه فيتوالى على خاطر الناشي في النعيم والترف ما لا يتوالى على خاطر الناشي في حال عسرة وبؤس . ويحضر في نفس من شب في الحاضرة ما لا يحضر في نفس الناشي في البادية ، وينساق الى خيال الناشي في شمال المصورة ما لا يدخل في خيال الناشي في جنوبها ، فالقيم في شمال أوربا مثلاً يذكر الشتاء فتقارنه صورة الثلج وليس بينهما في ذهن المقيم بالجنوب اقتران واتصال ثقة مشاهدته للثلج أو عدم وقوع فاره نايه طول حياته ، ولو نظر الى الهلال رجلاً هذا نشأ في الحلية والاخر اتخذ الحصاد حرفة فانشأ أن يتداعي الى اول صورة السوار وينتقل منه الى المعجم أو العياغة ويتداعي الى صورة السور فينتقل وينتقل منها الى الزرع أو الحداة (يتبع) محمد الحضر التونسي